Dirasat: Human and Social Sciences, Volume 53, No. 3, 2026, 8820

Deanship of Scientific Research

Al-Sakaki's Rhetoric in the View of Scholars between Denial and Support

Benissa Bettahar *

Department of Arabic, University of Sharjah, Sharjah, EAU

Received: 24/8/2024
Revised: 8/9/2024
Accepted: 21/10/2024
Published online: 1/10/2025

* *Corresponding author:*
benissa@sharjah.ac.ae

Citation: Bettahar, B. (2025). Al-Sakaki's Rrhetoric in the View of Scholars between Denial and Support. *Dirasat: Human and Social Sciences*, *53*(3), 8820.
https://doi.org/10.35516/Hum.2025.8820

© 2026 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Abstract

Objectives: Some of modern scholars saw that Al-Sakaki's rhetoric represents a stage of decline in the science of rhetoric; it contributed negatively to introducing philosophy into this science, while another trend stated that he had undeniable contributions to the development of the sciences of rhetoric in his era. This research aims to present a set of opinions put forward by each trend.

Methods: This research was based on an analytical deductive approach, and the research plan included an introduction to the objectives of the book "Miftah Al-Ulum" and its characteristics, and three topics, the first of which dealt with criticism of Al-Sakaki's rhetorical study, the second studied the appreciation of Al-Sakaki's efforts in Arabic rhetoric, and the third was devoted to studying Al-Sakaki's rhetoric in light of modern stylistics.

Results: accusing Al-Sakaki of being the reason for the stagnation of Arabic rhetoric is a judgment far from fairness; he tried to develop an integrated theory in "literary science", to be a natural result of the theory of "systems" of Al-Jurjani.

Conclusions: Al-Sakaki addressed some issues related to stylistic displacement, including what came in the chapter on news; and described this departure as being one of the basics of rhetoric in literary discourse, and such procedures converge with some modern stylistic concepts.

Keywords: Rhetoric; Al-Sakaki; stylistics; terminology; methodology.

بلاغة السّكاكي في قراءات الدّارسين بين الإنكار والتأييد

بن عيسى بطاهر*

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الشارقة، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

ملخّص

الأهداف: تباينت آراء الدارسين المحدثين بشأن السّكاكي ومنهجه البلاغي، فرأى بعضهم أنّ البلاغة السكاكية تمثّل مرحلة تراجع علم البلاغة؛ فقد أسهمت إسهامًا سلبيًا في إدخال الفلسفة إلى هذا العلم، ووضع القوانين والقواعد الصارمة، وقلّة الاهتمام بتحليل النص الأدبي وتذوقه، في حين دافع اتّجاه آخر عن منهجه، وذكر أنّ له إسهامات لا تنكر في تطوّر علوم البلاغة في عصره، ولا يمكن محاسبته بمقاييس علمية حديثة، ويهدف هذا البحث إلى عرض جملة من الآراء التي ساقها كلّ اتجاه، ومناقشة الأدلة التي استندوا إليها في دعواهم.

المنهجية: استند البحث إلى المنهج التحليلي الاستنباطي، وشملت خطة البحث تمهيدًا عن أهداف كتاب "مفتاح العلوم" وخصائصه، وثلاثة مباحث، تناول أولها نقد الدرس البلاغي للسّكاكي، ودرس ثانيها تثمين جهود السّكاكي في البلاغة العربية، وخصّص ثالثها لدراسة بلاغة السّكاكي في ضوء الأسلوبيات الحديثة.

النتائج: وقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج أبرزها أنّ اتهام السّكاكي بأنّه السبب في جمود البلاغة العربية حكمٌ بعيد عن الإنصاف؛ فقد حاول وضع نظرية متكاملة في "علم الأدب"، لتكون ثمرة طبيعية لنظرية "النظم" الجرجانية، وتقع مسؤولية تراجع البلاغة على بعض البلاغيين الذين جاؤوا من بعده بسبب اهتمامهم بالشروح والتلخيصات.

الخلاصة: تناول السّكاكي بعض القضايا المتعلقة بالانزياح الأسلوبي، ومنها ما جاء في باب الخبر؛ ووصف هذا الخروج بكونه من أساسيات البلاغة في الخطاب الأدبي، ومثل هذه الإجراءات تتلاقى مع بعض المفاهيم الأسلوبية الحديثة القائمة على مبدأي الاختيار والانزياح.

الكلمات الدالة: البلاغة، السّكاكي، الأسلوبية، المصطلح، المنهج

تقديم:

لقي كتاب "مفتاح العلوم" لأبي يعقوب السّكاكي (626ه) اهتمام الدارسين القدماء؛ فكان أنْ عُنُوا به أشدَّ العناية؛ فقاموا بتلخيص القسم الخاصّ بعلم البلاغة وهذّبوه وشرحوه، ثمّ جعلوه مرجعهم الأول في علم البلاغة، غير أنّ الدارسين المحدثين اختلفوا بشأن منهجه والإضافة الموجودة فيه، ومدى تأثيره في تطوّر علم البلاغة؛ وكان هناك اتجاهان: فأصحاب الاتجاه الأول عدّوه مرحلة انحراف خطير عن السبيل القويم الذي سلكه عبد القاهر الجرجاني من قبل، وقد أدى هذا الانحراف إلى تراجع البلاغة، ودخلت مع السّكاكي في مرحلة الجمود والجفاف والابتعاد عن الذوق الأدبي، وأمّا الاتجاه الثاني من الدارسين المحدثين فرأوا أنّ ما أنجزه السّكاكي يمثّل حلقة ضرورية مكمّلة لجهود السابقين؛ فقد قام بجهد كبير لترتيب مباحث هذا العلم وصياغة مصطلحاته، وتقديمه للنّاس في صورة متكاملة منظّمة.

وتأتي أهمية هذا البحث في كونه مراجعة تقويمية لآراء أبرز آراء الدارسين المحدثين، وذلك من خلال مناقشة مجموعة من التساؤلات التي يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

1. ما أهداف كتاب «مفتاح العلوم» للسّكاكي؟
2. لماذا سار الدارسون القدماء في ركاب السّكاكي؟
3. ما أسباب تباين آراء الدارسين المحدثين بشأن البلاغة السّكاكية؟
4. هل يمكن الإفادة من البلاغة السّكاكية في ضوء الأسلوبيات الحديثة؟

وقد اعتمدت هذه الدراسة على المنهج التحليلي الاستنباطي، وشملت الخطة تمهيدًا وثلاثة مباحث، تناول التمهيد أهداف كتاب "مفتاح العلوم" وخصائصه، وتناول المبحث الأول: نقد الدرس البلاغي للسّكاكي، وخصّص المبحث الثاني لدراسة تثمين جهود السّكاكي في البلاغة العربية، وتناول المبحث الثالث بلاغة السّكاكي في ضوء الأسلوبيات الحديثة، وختم البحث بخلاصة لأبرز النتائج.

ولعلّ من أبرز الدراسات السابقة التي تناولت هذا الموضوع دراسة أحمد مطلوب "البلاغة عند السّكاكي" التي توصل فيها إلى أنّ منهج السّكاكي المستند إلى علم المنطق كان هو السّبب في تراجع البلاغة في العصور المتأخرة، ودراسة سعد مصلوح "في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية" التي دافع فيها عن منهج السّكاكي الذي كان ينوي تأسيس نظرية في علم الأدب، ودراسة يوسف رزقة "القاعدة والذوق في بلاغة السّكاكي" التي تناول فيها جهوده في مجال تحويل البلاغة إلى بلاغة معيارية تحقيقًا لحاجات البيئة التي عاش فيها.

تمهيد:

قسّم السّكاكيُّ[1] كتابه (مفتاح العلوم) إلى ثلاثة أقسام أساسية: تحدث في القسم الأول عن علم الصرف، وما يتصل به من الاشتقاق الصغير والكبير والأكبر، وجعل القسم الثاني لعلم النحو، أمّا القسم الثالث فخصّصه لعلم المعاني وعلم البيان، وألحق بهما دراسة للمحسّنات البديعية، ورأى أنّ هذه العلوم تحتاج إلى علوم أخرى، فأضاف في القسم الرابع علم الحد والاستدلال (علم المنطق) وفي القسم الخامس علمي العروض والقافية، وبذلك اشتمل المفتاح على علوم الصرف والنحو والبلاغة والمنطق والعروض والقوافي، وقد اكتسب المفتاح شهرته من قسمه الثالث الذي تناول السّكاكي فيه علوم البلاغة (شوقي (د.ت)، ص298).

صنّف السكاكي كتابه "مفتاح العلوم" بعد اطلاعه على أعمال أسلافه أمثال الجاحظ (255ه)، وقدامة بن جعفر (337ه)، وكان كتابا (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني (471ه) هما الأساس الذي استند عليه في إرساء قواعد علم البلاغة، كما أنّه أفاد من كتاب الفخر الرازي (606ه) المسمّى (نهاية الإيجاز)، وتفسير (الكشّاف) للزمخشري (538ه)، وقد تفوّق السّكاكي على الذين سبقوه بحسن التنظيم، ودقة الصّياغة، وجودة الترتيب، وسار في دراسة هذا الفن على منهج علمي يتخذ من المنطق وعلم الكلام أساسًا يستند إليه في صياغة المصطلحات وتقسيم المسائل؛ وقد تحوّلت البلاغة في هذا الكتاب إلى علم معياري بأدقّ المعاني لكلمة علم؛ فهي قوانين وقواعد تخلو من كلّ ما يُمتع النّفس (شوقي (د.ت)، ص288)، ومن المآخذ التي لاحظها الدارسون على منهج السّكاكي: التعقيد، وكثرة التعريفات، والمبالغة في التقسيم والتفريع، ومع ذلك كلّه فقد سار العلماء على نهجه من بعده.

---

[1] السّكاكي هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر الخوارزمي، عاش حياته كلّها في إقليم خوارزم، بدأ حياته بصناعة المعادن، وقد كان ينتمي إلى أسرة كانت – فيما يبدو - تحترف صنع السكك؛ وهي المحاريث التي تحرثُ بها الأرض، وقيل كانت تهتم بصنع السّكة وهي حديدة منقوشة تضرب بها الدراهم، ثمّ تحوّل بعد الثلاثين من عمره إلى طلب العلم، حتّى أصبح علمًا من أعلام عصره، ترك بعض المصنّفات القليلة أشهرها كتاب "مفتاح العلوم" الذي ذاع صيته وانتشر بين النّاس، توفي بخوارزم سنة (626ه) (السكاكي 2000، ص14-18)، يقول عنه ياقوت الحموي: "فقيه متكلم متفنّن في علوم شتَّى، وهو أحد أفاضل العصر الذين سارت بذكرهم الركبان". (ياقوت 1993، ج20 ص58،59). وانظر: السّكاكي أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت 2000م، ص14-18.

ما أهداف كتاب (مفتاح العلوم) للسّكاكي؟ وما الذي أضافه إلى السابقين؟ لقد اطّلع السّكاكي على كتب البلاغيين المتقدّمين[2]، فوجد مجموعة من الآراء المتناثرة في فنون النّظم وأساليب التعبير، كالتشبيه والاستعارة وغيرها من مباحث البلاغة، ولكنّها بحاجة إلى ضوابط وقوانين واضحة، فكان كلّ هَمِّهِ أن يقعّد هذه المسائل ويخترع لها الاصطلاحات العلمية، ثمّ عمل على ترتيبها وتنظيمها في مباحث تساعد طالب العلم على الإفادة منها، وحاول تطبيق هذا المسلك على علوم الأدب التي ذكرها في كتابه، فقال: "لا ترى علمًا لقي من الضَيْمِ ما لقي، ولا مُنِيَ من سَوْمِ الخَسْفِ بما مُنِي، أين الذي مهَّدَ له قواعد، ورتَّب له شواهد، وبيَّن له حدودًا يرجع إليها؟" (السّكاكي 2000، ص532).

كانت أهداف السّكاكي – فيما يبدو - تعليمية بالدرجة الأولى؛ فهو يريد جمع مادة علمية منظّمة ومنضبطة من جهة المصطلحات، لتكون مفتاحًا للدخول إلى عالم فنون الأدب، وأداة مهمّة يستند إليها طالب العلم في رحلته الطويلة نحو تعلّم مبادئ هذا العلم، ويبدو أنّ هذه الأهداف قد تحقّقت من خلال ما أضافه السّكاكي في القسم الخاصّ بعلوم البلاغة؛ فقد قسّم البلاغة إلى علمي المعاني والبيان، وجعل البديع متمّما لهما، ورتّب مسائل هذا العلم بإعادة صياغته للمصطلحات، وربطها بما شواهد وأمثلة للإيضاح والاستدلال، فكان أن تقبّل القدماء صنيع السّكاكي بقبول حسن، وأثنوا على منهجه وطريقته في العرض، على الرغم من بعض المآخذ عليه، ولعلّ من أبرز الذين أعجبوا بكتابه القزويني (739ه) الذي قام بتلخيص كتابه، وقال في مقدمته: "إنّ مفتاحَ العلوم للسكاكي أعظمُ ما صُنّف في علم البلاغة، من الكتب المشهورة نفعًا، لكونه أحسنها ترتيبًا، وأتمّها تحريرًا، وأكثرها للأصول جمعًا، ولكن كان مصنَّفُ السَّكاكي غير مصونٍ عن الحشو والتطويل والتقصير" (القزويني 2002، ص37).

فالقزويني يرى أنّ كتاب السّكاكي أعظم كتاب في البلاغة في عصره؛ وعلّل ذلك بثلاثة أسباب: الترتيب الحسن، والتحرير التّام (صياغة المصطلح)، والإحاطة بجميع المسائل، ويبدو أنّ هذه المعطيات هي التي ميّزت كتاب السّكاكي، وجعلته محلّ اهتمام الدارسين الذين اهتموا بعده بتلخيصه وتهذيبه، وجعلوه المرجع الأول في علوم البلاغة، يقول بدوي طبانة: "لسنا نعرف السّحر العجيب الذي سحر العلماء بكتاب السّكاكي؛ فجعلهم ينسون أنفسهم، وينكرون ملكاتهم؛ ليسيروا في ركاب السّكاكي وفي فلك كتابه، فجعلوه القطب الذي يدورون من حوله" (طبانة 1988، ص335).

وأمّا الدارسون المحدثون فقد تباينت آراؤهم بشأن السّكاكي ومنهجه البلاغي، ويمكن تصنيفها في اتجاهين مختلفين:

الاتجاه الأول: وهو الذي مثله الجيل الأول من الدارسين في القرن العشرين، ويرى أصحابه أنّ مرحلة السكاكي البلاغية هي المرحلة التي شهدت تراجع علم البلاغة، فقد أسهم السّكاكي إسهامًا سلبيًا في إدخال الفلسفة إلى هذا العلم، فكانت العناية منصبة على وضع القوانين والقواعد الصارمة، وقلّ الاهتمام بتحليل النص الأدبي وتذوقه الذي يعدّ الغاية الأولى لهذا العلم، وأشهر من يمثل هذا الاتجاه: طه حسين، وأمين الخولي، وشوقي ضيف، وأحمد مطلوب.

الاتجاه الثاني: ويمثله مجموعة من الدارسين المعاصرين الذين جاؤوا بعد الجيل الأول، وحاولوا قراءة السكاكي بمناهج أخرى، فكان أن دافعوا عن صنيعه، وأثبتوا أنّ له إسهامات لا تنكر، كما كان له أياد بيضاء في تطوّر علوم البلاغة العربية في عصره، ولا يمكن محاسبته بمقاييس علمية حديثة، ومن أشهر من مثل هذا الاتجاه، محمد الجابري، وسعد مصلوح، وفضل حسن عباس، ومحمود شاكر، والمستشرق كيس فيرستيج[3].

وسنعرض لجملة من الآراء التي ساقها كل اتجاه، مع الإشارة إلى الأدلة التي استندوا إليها في دعواهم، وذلك لمناقشتها والحكم عليها من حيث أوجه القوّة أو الضعف.

أولاً: نقد الدرس البلاغي للسّكاكي

وجّه بعض الدارسين المحدثين في مرحلة مبكّرة من القرن العشرين مجموعة من الآراء النقدية السلبية بشأن بلاغة السّكاكي، فقد أصدروا حكمًا يتهمّها بكونها السّبب الرئيس في جرّ البلاغة من مراحل الإبداع والنّضج إلى مراحل الجمود والتردّي؛ وذلك لجملة من الأسباب نوردها في النقاط الآتية:

1. يعدّ الأثر الفلسفي واستعمال المنطق في الدرس البلاغي عند السّكاكي من أهم الأسباب التي أدّت إلى تراجع البلاغة؛ ويأتي طه حسين في مقدمة الباحثين العرب الذين تحدّثوا عن الأثر اليوناني في البلاغة العربية في بحث له باللغة الفرنسية قدم عام (1933م) إلى مؤتمر المستشرقين، ثمّ نُشر مترجمًا في مقدّمة كتاب "نقد النثر" المنسوب لقدامة بن جعفر، وكانت الخلاصة التي توصل إليها طه حسين أنّ أرسطو لم يكن المعلّم الأول للمسلمين في الفلسفة وحدها؛ ولكنّه إلى جانب ذلك كان معلّمهم الأول في علم البلاغة، ووجّه طه حسين نقده إلى مؤسّس علم البلاغة عبد القاهر الجرجاني متّهمًا إياه بإدخال الفلسفة إلى علوم البلاغة؛ فهو في نظره مجرد ناقل وشارح لبلاغة أرسطو، قال: "لم يكن عبدُ القاهر الجرجاني عندما وضعَ في القرن الخامس كتابَ "أسرار البلاغة" المعتبر غرّة كتب البيان العربي إلاّ فيلسوفًا يجيدُ شرح أرسطو والتعليق عليه" (قدامة 2004، ص18). كما اتهم طه حسين السّكاكي والبلاغيين الذين جاؤوا بعده بإفساد البلاغة بمناهجهم الفلسفية (طه، ح. (د.ت)، ص14)، فلم تتقدّم البلاغة العربية بعد عبد القاهر

---

[2] كان عمدته في النهوض بهذا الكتاب: كتابي عبد القاهر الجرجاني "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، وكتاب الرازي "نهاية الإيجاز"، وتفسير الزمخشري "الكشاف". انظر: السّكاكي، مفتاح العلوم، ص19 (مقدمة المحقّق).

[3] الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، ط9 مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2009م. ومصلوح سعد، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، جامعة الكويت 2003م. وعباس، فضل حسن، البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية، دار النور، بيروت 1989م. ومقدمة أسرار البلاغة، تحقيق محمود شاكر، ط1 مطبعة المدني جدّة 1991م، ص17. وفيرستيج كي، أعلام الفكر اللغوي، ترجمة أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديد، بيروت 2007م.

تقدمًا ما، بل لقد أخذت على العكس من ذلك في التأخّر والانحطاط، ومنذ عصر السّكاكي جعلت تفقد كلّ صفة أدبية لها، وتصبح فريسة للشرّاح والمقرّرين الذين شغلوا بالجدل فيما ليس بشيء، وكادوا يجهلون الأدب العربي جهلاً تامًا" (قدامة 2004، ص34).

وتبدو أحكام طه حسين قاسية على عبد القاهر والبلاغيين المتأخرين حين اتهمهم بإنتاج بلاغة مفلسفة اعتمادًا على ما قرّره أرسطو؛ ذلك أنّ كلّ دارس منصف يدرك الفرق الكبير بين البلاغة العربية والبلاغة الأرسطية، فلم يكن عبد القاهر – أبدًا - مجرّد شارح لأرسطو، بل كان مؤصلاً لبلاغة عربية منبثقة من الأصول المعرفية عند المسلمين، ومستندة بالدرجة الأولى إلى نص قرآني معجز، وكان سببًا في حفز الدارسين على تطوير هذا العلم ووضع قواعد تعين النّاس على فهمه وإدراك أسراره البيانية، وإذا سلمنا بتراجع البلاغة بعد عبد القاهر في مجال التعامل مع النصوص الأدبية، فذلك راجع إلى أسباب كثيرة، لعلّ أبرزها ضعف الأدب العربي في تلك الفترة، وليس بسبب جهل البلاغيين بالأدب العربي كما يقول أمين الخولي. (الخولي 1961، ص155).

وأمّا وصف عصر البلاغيين المتأخرين بعصر الانحطاط فحكم ينقصه الإنصاف؛ فقد ظهر في هذا العصر علماء مجدّدون لا يمكن إنكار إنجازاتهم البلاغية، منهم السّكاكي (626هـ)، وابن الأثير (637هـ)، والقزويني (739هـ)، والعلوي (749هـ)، وحازم القرطاجنّي (684هـ)، والسجلماسي (القرن الثامن الهجري)، وحتّى أولئك الشراح والملخّصين لا يمكن إنكار فضلهم، فقد ذكر الحباشة أنّنا "نعترض على حصر كتب الشروح في ذلك الأمر التعليمي من ناحية، كما نعترض من ناحية ثانية على الاعتبار المسبق أنّ الكتب التعليمية مطلقًا لا غناء علميًا منها، صحيح أنّ النّظر في مبادئ العلم لا ينبغي أن يتّجه إلى الكتب التعليمية، لكن لا يليق بنا أن نذهل عن أنّ الكتب التعليمية من أكثر الأدوات المساعدة في تقييم ثقافة العصر نظرًا إلى اتجاهها إلى شريحة كبيرة من المهتمين، وهذا الأمر أسهم في احتواء الشروح والحاوشي خليطًا من المعارف المترادفة التي تشكّل المعارف الأساسية في البرنامج التعليمي لذلك العهد، وما الاستطرادات التي ترشح بها حاشية الدسوقي من تاريخ وأخبار ونقد أدبي وعروض وأنساب ... إلّا صورة عنها" (الحباشة 2007، ص143).

2. ابتعاد البلاغة السّكاكية عن الذوق الفني؛ فقد وجدت أفكار طه حسين صداها لدى مجموعة من الدارسين الذين جاؤوا من بعده، وحاولوا التوسّع في هذه المسألة والاستدلال عليها بأدلة مختلفة، وكان من أبرزهم أمين الخولي، الذي صنّف مناهج البلاغيين إلى مدرستين: المدرسة الأدبية التي يمثلها عبد القاهر الجرجاني، والمدرسة الكلامية التي يمثلها السّكاكي ومن جاء بعده من الشرّاح والملخّصين، وقد كانت المدرسة الكلامية هي السّبب في ابتعاد البلاغة العربية عن الذوق الفني (الخولي 1996، ص130)، وكان للسَّكاكي (626هـ) دورٌ كبير في ذلك؛ فقد اهتم بصياغة المصطلحات البلاغية اعتمادًا على مبدأ الحدّ والاستدلال، كما لم يوظّف قواعد البلاغة توظيفًا فعّالا في فهم النصوص الأدبية واكتشاف جوانبها الفنّية والجمالية.

والنّاظر في كتابات السّكاكي يجد أنّه دعا إلى تحكيم الذوق الفنّي في دراسة الأدب (السكاكي 2000، ص413)؛ فقد شكر أستاذَا له يُدعى الحاتمي، الذي أرشده إلى العناية بالذوق في البحث عن جماليات الأدب، ولكنّ يبدو أنّ مجال التطبيق لدى السّكاكي في هذه المسألة لم يكن في مستوى التنظير؛ فقد أهمل مقاييس الذوق الأدبي في دراسة النصّ الأدبي.

3. تحمّل السّكاكي مسؤولية جمود البلاغة في العصور المتأخرة؛ بسبب التقليل من الجوانب التطبيقية وتحليل النصوص، فقد استطاع "أن يسوّي من نظرات عبد القاهر والزمخشري علمي المعاني والبيان، ولكن بعد أن أخلاهما من تحليلاتهما الممتعة البارعة للنصوص الأدبية، وبعد أن سوى قواعدهما تسوية منطقية عويصة، حتى ليصبح المنطق وأيضاً الفلسفة جزءًا منهما لا يتجزأ، وحتى ليحتاج كتابه في هذا القسم إلى الشرح تلو الشرح ... وكلُّ شارح يضيف من أصباغ المنطق والفلسفة وعلم الكلام ما تمدّه به ثقافته، وكان ذلك كله إيذانًا بتحجّر البلاغة وجمودها جمودًا شديدًا" (شوقي (د.ت)، ص313).

والمتأمّل في منهج السّكاكي يدرك أنّه لم يهمل تحليل النّصوص الأدبية بالكلّية؛ فقد استشهد في كتاباته بكثير من النصوص القرآنية والشعرية، وبحث في أغراضها البيانية ودلالاتها المعنوية؛ ولكنّ تحليله لم يرتقِ إلى ذلك المستوى الذي لاحظناه عند عبد القاهر الجرجاني، والسَّبب في ذلك واضح وهو سيطرة النزعة القواعدية على منهجه؛ فعنايته بالجانب المعياري أثّر في الجانب التطبيقي لديه، وقد لاحظ الدارسون أنّ هذا المنهج أدّى إلى انحراف البلاغة عن غايتها الأساسية بوصفها أداة مهمّة في تحليل النصّ الأدبي، إلى مادة تعليمية قواعدية جامدة، ولكن ينبغي ألاّ ننسى أنّ ضعف الأدب في عصر السّكاكي كان أحد أهمّ الأسباب المهمّة في تراجع البلاغة في هذا الجانب.

4. عرض مسائل البلاغة بأسلوب منطقي معقّد؛ فقد انتقد الدارسون السّكاكي بسبب اعتماده الصارم على مبدأ الحدّ والاستدلال؛ وعنايته بالمصطلح البلاغي على حساب تحليل النصّ، وتوصّل أحمد مطلوب في بحثه عن السّكاكي إلى أنّ النزعة الجدلية قد سيطرت على بحثه، فكان أسلوبه معقّدا تشوبه العجمة، فهو يقدّم ويؤخّر ويعبّر عن المعنى بأسلوب ليس فيه رواء وإشراق، وكان يهتمّ بالقاعدة، وقد دفعه ذلك إلى تقليل الشواهد وتجزئة الأبيات الشعرية، وعدم الوقوف عند تحليلها وإظهار ما فيها من جمال وتأثير (مطلوب 1973، ص257).

فالإشكالية الكبيرة التي وقع فيها السَّكاكي هي في أسلوبه المنطقي الجاف، وطريقته العويصة في عرض مسائل البلاغة؛ فقد أكثر من استخدام المصطلحات المنطقية، فذكر من ذلك الألوان والطعوم والروائح والحواس، والوهم والخيال والحس المشترك والوجدان، والكلام على الفاعل الحقيقي وغير ذلك (المراغي 1950، ص32)، ويرى رجاء عيد أنّ المنهج الفلسفي الذي اتبعه السّكاكي في عرض مسائل البلاغة هو السبب وراء جمود البلاغة، فقد كان لسيطرة منطق أرسطو أثره في تلك الجداول الجافة التي جمّد فيها السكاكي مباحثه (رجاء (د.ت)، ص10).

إنّ هذه الآراء التي وضعت السّكاكي في قفص الاتهام بسبب أسلوبه الفلسفي الجافّ في التناول، واعتماده الصارم على مبدأ الحدّ والاستدلال، هي آراء تنطلق عن تصوّرات مثالية لما كان يجب أن تكون عليه بلاغة القدماء؛ ولذلك وقع هؤلاء الدارسون في محذور الحكم على الشيء بخصائص غيره، لأنّ مزج الدراسة الفنية بأشياء من الفلسفة والمنطق كان نتاجًا طبيعيًا للأحوال التي عاشتها الأجواء الأدبية والبلاغية في العصر الوسيط (الداية 1976، ص243)، فمعلوم أنّ جلّ البلاغيين كانوا على اطلاعٍ مباشر أو غير مباشر على الأعمال الفلسفية اليونانية التي دخلت إلى الثقافة العربية منذ القرن الثالث الهجري، وقد أفادوا من هذه المعطيات إفادة واعية تتناسب مع الأجواء الفكرية التي كانت سائدة في تلك العصور، والتي شاع فيها علم الكلام والمناظرات والحوارات الثقافية في مختلف المجالات.

لقد كان السّكاكي معنيًا بخدمة علم البلاغة وفق معطيات عصره، وحاول ضبط هذا العلم بضوابط علمية صارمة مع التركيز على صناعة المصطلح وما يتعلّق بهذ من مفاهيم ونظريات، ويرى شكري عياد أنّه من الطيش أن نضع بلاغة السكاكي - منتزعة من جذورها - بجانب الشّجرة الناضرة للنقد الحديث، أو حتى لعلم الأسلوب الحديث، لننعى على الأولى ذبولها وجفافها، ونحمد من الآخرين وزنهما وبهاءهما، يجب أن نفهم البلاغة القديمة في حدود عصرها أولًا، ومن يدري إن كنا سنرفضها بعد ذلك أو نتعلّم منها" (عياد 1999، ص220).

ثانيًا: تثمين جهود السّكاكي في البلاغة العربية

حاول عددٌ من الباحثين المحدثين قراءة كتاب "مفتاح العلوم" قراءة جديدة تستند إلى مبدأ محايد، يقوم على عدم إغفال جهود السّكاكي في الفكر اللغوي عند العرب، وفي الفكر البلاغي على وجه التحديد، وقد ركّزت دراساتهم على جملة من الآراء لإعادة الاعتبار للسّكاكي في الجوانب الآتية:

1. ضبط وتقنين العلوم البيانية العربية؛ ويعدّ محمد عابد الجابري أحد أبرز الدارسين الذين حاولوا إعادة الاعتبار للسّكاكي ومنهجه في تناول علوم البلاغة؛ فقد تحدّث في الفصل الثاني من كتابه "بنية العقل العربي" (الجابري 2009، ص89، 90) عن رؤيته للوضع الذي آلت إليه مباحث البلاغة العربية عند السّكاكي في مفتاح العلوم؛ حيث جرى النّظر إلى البلاغة نظرة فلسفية واستدلالية منطقية جرى فيها تفريع مسائلها، وتقسيمها إلى تقسيمات معيارية أعاقت نموها وتطورها في عرف أغلب دارسي هذه البلاغة والباحثين في العصر الحديث.

ويتمحور رأي الجابري في أنّ مشروع السّكاكي (626هـ) كان أوسع وأعمق من مشروع عبد القاهر الجرجاني؛ لقد كان بمعنى من المعاني تجاوزًا ليس فقط لإشكالية اللفظ والمعنى، بل أيضًا لنظرية النظم الجرجانية ذاتها، وأنّ كل ما كان يربط السّكاكي بأرسطو هو أنّه عمل على ضبط وتقنين العلوم البيانية العربية، مثلما عمل أرسطو من قبله على ضبط وتقنين العلوم الفلسفية اليونانية.

ويستند الجابري في رأيه هذا إلى نظرته إلى العلوم البيانية العربية كلها مجتمعة في ترابطها وتداخلها وتأثير بعضها في بعض؛ فهو يرى أنّ هذه العلوم العربية سواء تعلّق الأمر بعلم البلاغة أو علم النّحو أو علم الفقه وأصوله وعلم الكلام، فهذه العلوم مترابطة متداخلة بصورة تجعل منها مظاهر وفروعًا لعلم واحدٍ هو البيان؛ وخلاصة رأيه أنّ السّكاكي ليس هو الذي خنق الحياة في البلاغة العربية بتعقيداته وتقنيناته - كما يزعم بعض الدارسين - بل إنّ الأسس التي قامت عليها العلوم البيانية كلّها - والبلاغة العربية مجرد فرع منها - هي التي كان مخزونها قد نفد تمامًا، فلم يعد بإمكانها أن تمد الباحث بشيء آخر غير نفسها... إن هذا يعني أن التجديد في البلاغة العربية كان يتطلّب إعادة تأسيس البيان العربي ككلّ" (الجابري 2009، ص90).

وتمثّل قراءة الجابري للبلاغة السّكاكية رؤية جديدة قائمة على إعادة الاعتبار لما وصلت إلى البلاغة عند المتأخرين، فهي مرحلة مهمّة في تاريخ هذا العلم استطاع من خلالها السّكاكي تجاوز نظرية النظم الجرجانية من خلال تحديد هذا المصطلح وتقنينه، وتوفير آلية فيها مزيد من الضبط لعلوم الخطاب العربي وإبراز الطابع الاستدلالي للأساليب البيانية العربية.

2. محاولة السّكاكي تشكيل نظرية في علم الأدب؛ فقد دافع سعد مصلوح عن السّكاكي وصنيعه في كتابه "مفتاح العلوم"؛ ونظر نظرة عامّة إلى أهداف هذا الكتاب؛ ورأى أنّ السّكاكي اتبع منهجًا أصوليًا في كتابه "مفتاح العلوم"، وكانت محاولته لتأليف "المفتاح" لا ليكون متنًا في الصرف أو النحو أو المعاني والبيان، أو غيرها من العلوم كلّ على حدة، بل ليكون مدخلًا جامعًا لكلّ ما يلزم علمه لمشتغل بعلم الأدب، ويمكن تلخيص أبرز آرائه بشأن هذا العمل المهمّ في تاريخ العلوم عند العرب في النقاط الآتية (مصلوح 2003، ص52-65):

أ. أطلق السّكاكي على عمله هذا مصطلح "علم الأدب".

ب. نصّ بذلك نصًا على أنه لا يؤلف كتابا في "علم البلاغة".

ج. كانت دعوته إلى وضع" علم الأدب ليكون مدخلاً جامعا لكل ما يلزم علمه لمشتغل بعلم الأدب.

د. صارت هذه العلوم في نظريته منظومة منهجية تتوالى عناصرها المكونة لها في علاقة منهجية حتمية، لا يتم الدرس الصّحيح لنوع الأدب إلا بتضافرها واجتماعها.

وعند النظر إلى كتاب السّكاكي بهذه النظرة نجد أنّه قام بعمل مهمّ في تشكيل علم الأدب الذي كان يرى أنّه علم متفرّق الأجزاء، وأنّه لم يحض بعناية العلماء الذين قلبه، فسعى إلى تقديم منظومة من العلوم تكون بمثابة المفتاح للدخول إلى عالم الأدب الذي يقوم تشكليه الفنّي على معرفة قوية بهذه العلوم التي سمّاها ابن خلدون علوم الآلة (ابن خلدون (د.ت)، ص536)، ويرى مصلوح أنّ نظرية السّكاكي في "علم الأدب" كانت ثمرة طبيعية لنظرية

"النظم"؛ بيد أنّ السّكاكي أضرَّ به تلامذته وتابعوه باجتزائهم القسم الثالث من كتابه وقطعه عن سياقه، وفصمهم لعرى منظومته التحليلية، ومع ذلك لم يكن السّكاكي مستحقًا لما شنّه عليه الدارسون المحدثون من هجوم؛ فلقد أصبحت البلاغة بفضل ما أنجزه علمًا منضبطًا، وصيغت قواعدها صياغة تهيئها لتكون وسيلة فنية دقيقة (مصلوح 2003، ص65).

وتبدو نظرة المستشرق الهولندي كيس فيرستيج (Versteegh. K) متوافقة مع نظرة سعد مصلحو؛ فقد أشار إلى أنّ كتابًا متأخرين تبنوا دعوة الجرجاني لضمّ علم الدلالة في علم اللغة، وكانوا يهدفون إلى تنظيم جديد لهذه العلوم، ومن أشهر هؤلاء الكتاب السّكاكي، الذي ألف كتاب "مفتاح العلوم"، وذكر فيه مصطلح "علم الأدب" بوصفه اسمًا لعلم جديد، وكان الغرض منه أن يحتضن جميع العلوم التي كانت تتعامل بطريقة أو بأخرى مع اللغة (فيرستيج 2007، ص179).

3. تحديد المصطلحات البلاغية، وفصل بعضها عن بعض؛ ولعلّ من أبرز الدارسين الذين دافعوا عن البلاغة السّكاكية فضل حسن عباس؛ فقد رأى أنّ "السّكاكي سلب بلاغة عبد القاهر هذه السمات الأدبية، وهذا الأسلوب الذي يستند إلى الذوق والقاعدة معا، ولكن ينبغي ألاّ ننسى أن البلاغة كانت بحاجة إلى من يحدّد لها مصطلحاتها تحديدًا تامًا، ويفصّل مسائلها، ويفصل بعضها عن بعض، وتلك حسنة لا ينبغي أن تغفل"(عباس 1989، ص145).

ولا بدّ من الإشارة في هذا السياق إلى تلك الآراء القيّمة التي ساقها محمود شاكر في تقويمه للبلاغة العربية عند المتأخرين، فقد ذكر في سياق ردّه على أولئك الذين يستهينون بما كتبه السّكاكي والبلاغيين الذين جاؤوا بعده بأنّ "هذه الكتب جميعًا منذ السّكاكي إلى الدسوقي كانت تقعيدًا لبعض ما كتبه عبد القاهر في كتابيه في البلاغة، فهو أول من أسّس علم البلاغة تأسيسًا بالغ الدقة، ومن طلب البلاغة منهما وحدهما، فقد وقع في بحر تتلاطم أمواجه، راكبه على غرر الغرق، والذي يضمن لراكبه النّجاة هم الذين قعّدوا قواعد علم البلاغة، وكتبوا الكتب والحواشي وضمنوها درراً لا يُعرض عنها إلاّ جاهل، ولا يذمّها ويحثّ الناس على الإعراض عنها، إلاّ من استهان بالعلم والعلماء" (الجرجاني 1991، ص17).

4. البلاغة السّكاكية رافد مهمّ للأسلوبيات الحديثة؛ ويعدّ تمام حسّان أبرز الدارسين الذين رأوا أنّ البلاغة السّكاكية لها موقعها في الدراسة الأسلوبية للغة، فهي بلاغة تعنى بدراسة الأساليب وتربطها بالبحث في الدلالة وفهم النصّ، ولكن طريقة عرض السّكاكي للمسائل هي التي أثرت سلبًا في منهجه، قال تمام حسّان "أثرت ثقافة السّكاكي في عرضه للبلاغة، فأسرف في الضبط والتقعيد، والبعد عن التذوق واستقراء النصوص، إلى درجة تيسِّر الاستيعاب، ولكنّها تقتل الملكة، وكان يسرُ الاستيعاب سببًا من أسباب متابعة المتأخّرين للسّكاكي، حتّى أصبح إمام هذا الفنّ غير منازع، وكثرت على كتابه الشروح والتلخيصات... وغرق الدارسون للبلاغة في خضم القواعد، فلم تعد البلاغة سلمًا إلى التذوّق، وإن أصبحت دراسة مهمّة تقع في نطاق مع يعرف في اللغويات الحديثة باسم الأسلوبيات (Stylistics)" (تمام 2000، ص278).

ثالثًا: بلاغة السكاكي في ضوء الأسلوبيات الحديثة

إنّ ما قام به السّكاكي من تصنيف وتقسيم وتحديد لمسائل البلاغة أمرٌ مهمّ يمكن الإفادة منه في الدراسات الأسلوبية الحديثة؛ فقد تناول كثيرًا من القضايا الأسلوبية المهمّة في مجال دراسة الجملة، يمكن الإفادة منها في تحليل النصوص الأدبية، كما تناول أيضًا بعض القضايا التي لها علاقة بالحِجَاج، ويمكننا الإفادة منها في دراسة الحِجَاج القرآني وغيره.

جعل السّكاكي علم المعاني هو الأصل في البلاغة، ويكون علم البيان فرعًا منه، وعلم البديع ملحقًا بهما، ومعلوم أنّ علم المعاني يقوم على المبدأ الجرجاني القائم على "توخي معاني النحو" في الكلام، فيكون "أصل المعنى" هو المنطلق في علم البلاغة؛ أي أنّه في ضوء الأسلوبيات الحديثة يمثّل المستوى النحوي في التركيب، يقول السّكاكي في تعريف علم المعاني: "هو تتبّع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصّل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره" (السكاكي 2000، ص247).

فلتحقيق الكلام غايته من الفهم والإفادة، لا بدّ أن يشمل أمرين: اختيار التركيب الأسلوبي المناسب، ومراعاة مقام المخاطَب، أو السياق الذي يقال فيه الكلام، فهذه هي المبادئ نفسها التي تنطلق منها الأسلوبيات في تحديدها للخطاب النفعي والخطاب الأسلوبي، فالخطاب النفعي هو الذي يعتمد على المستوى الأصلي في الكلام الذي يراعي القواعد الأصلية في النحو، وأمّا الخطاب الأسلوبي فهو الذي يقوم على اختيار التراكيب التي تخرج عن الأصل تحقيقًا لغايات بيانية أو دلالية يقتضيها السّياق، وهذا هو مبدأ (الانزياح) الذي يحقّق الوظيفة الشعرية (البلاغية) في اللغة كما يرى جاكبسون.

وقد أثار السّكاكي كثيرًا من القضايا المتعلقة بالانزياح الأسلوبي في باب الخبر، وعبّر عنها بتعبيرات خاصّة أبرزها "خروج الكلام على غير مقتضى الظاهر"، وكان أن وصف هذا الخروج بكونه من متمات البلاغة التي تفترّ عن السحر الحلال؛ أي أنّها تؤدي وظائف فنّية جمالية في التّعبير، ونجده قد وصف أولئك الذين يستخدمون هذا الأسلوب بأنهم مفلقون سحرة (السكاكي 2000، ص259).

فالملاحظ أنّه انطلق من مبادئ واضحة في اختيار الكلام، فمنه ما يكون على الأصل الذي أسماه "خروج الكلام على مقتضى الظاهر"؛ ذلك حين يساق الخبر الابتدائي من غير تأكيد للمخاطَب خالي الذهن، ويأتي الخبر الطلبي بأحد المؤكدات لإزالة الشكّ والتردّد لديه، في حين يكون الخبر الإنكاري بالإكثار من أدوات التوكيد لإزالة ما التصق بنفسه من إنكار، فإخراج الكلام على هذا الأسلوب هو الأصل الذي يقابله "التّصريح" في علم البيان (السكاكي 2000، ص258).

وأمّا العدول عن هذا الأصل فهو الانزياح الأسلوبي الذي يعدّ مزيّة الخطاب الأدبي، وقد أورد السّكاكي جملة من النصوص الأدبية وبيّن بنيتها اللغوية ودلالاتها البيانية، الأمر الذي يجعلنا نشيد بالقيمة الأسلوبية لآراء السّكاكي في ضوء النظريات الأسلوبية الحديثة، وهي التي تؤكّد أنّ الأسلوب هو كلّ ما ليس شائعًا ولا عاديًا ولا مطابقًا للمعيار المألوف... إنّه انزياح (Deviation) بالنسّبة لمعيار؛ أي أنّه خطأ ولكنّه خطأ مقصود (كوهين 1986، ص15).

والانزياح في المفهوم الأسلوبي راجعٌ إلى قدرة المتكلّم على خرق القاعدة اللغوية في مستويات صوتية، أو صرفية، أو نحوية، أو معجمية، أو دلالية، واللغة الإبداعية – سواء أكانت شعرية أم نثرية - هي التي تسمح بهذا التصرّف لتحقيق غايات فنّية جمالية وحجاجية، وقد أشار "جاكبسون" إلى هذا النوع من الانزياح" بعبارة "خيبة الانتظار" (Deceived expectation)، من باب تسمية الشيء بما يتولّد عنه، وهو يعني حرفيًا: "تلهّف قد خاب" (المسدي 2006، ص125)، وهو يشير بذلك إلى عنصر المفاجأة الذي يتعلّق بالتأثير في المتلقي.

وسنعرض لبعض الشواهد والنصوص التي ساقها السّكاكي لتوضيح هذا المبدأ الأسلوبي الذي أسماه " خروج الكلام على غير مقتضى الظاهر"، لمحاولة الكشف عن منهجه في تحليل النصوص الذي كان محل انتقاد الدارسين، ومن ذلك قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} (البقرة:102)، قال معلّقًا على الآية: "صدّره بصف أهل الكتاب بالعلم على سبيل التوكيد القسمي، وآخره بنفيه عنهم؛ حيث لم يعملوا بعلمهم" (السكاكي 2000، ص260).

فقد أشار إلى البنية اللغوية في الآية القائمة على التوكيد في الجملتين، ثمّ حدّد الدلالة القائمة على حجاج أهل الكتاب بإثبات الشيء ونقيضه؛ فهم يعلمون ولمن لا يعملون بمقتضى ذلك، والنتيجة هي عدم العمل بالعلم، ويرى السّكاكي أنّ الخبر قد ارتبط بالتوكيد لضرورات بيانية، تتعلّق بإنجاح عملية التخاطب، فالمتكلّم يتوقّع من المخاطَبِ أن يسأل سؤالًا بعد سماعه للرسالة، ويحمل ذلك السؤال نوعًا من الحيرة في فهم المراد من الكلام، فيأتي التوكيد لتقوية الكلام وتمكنينه في نفسه، وبذلك يتضّح الخطاب ويؤدي وظيفته البيانية (السكاكي 2000، ص260)، ولتأكيد رأيه ساق أمثلة أخرى من القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: {وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ} (هود:37)، فمجيء التوكيد بـ"إنّ" في الآية خروج على الأصل؛ وذلك لأنّ المخاطَبَ منزّلٌ منزلة السائل عن السبب في نهيه عن مخاطبة الظالمين، فجاء التوكيد ليزيل تلك الحيرة ويحقّق التأثير المطلوب.

ويؤكّد السّكاكي أنّ هذا النوع من الاختيار الأسلوبي يقع أيضًا عند كبار الشّعراء، ومن الأمثلة على ذلك قول بشّار بن برد:

بَكِّرا صاحِبَيَّ قَبْلَ الهَجيرِ إنَّ ذاكَ النَّجاحَ في التَّبْكيرِ

فقد استخدم الشّاعر التوكيد بـ(إنّ) في سياق الإخبار للمخاطَبِ خالي الذّهن، وفي ذلك مخالفة لأصل القاعدة النّحوية، فجاء بالتوكيد لاعتبارات تخاطبية تقتضي ورود تساؤل لدى المخاطب عن سبب التبكير قبل الهجير؟ فكان التوكيد اختيارًا أسلوبيًا للردّ على ذلك التساؤل تحقيقًا لغايات بيانية تتعلّق بالتأثير في المخاطَب وحمله على الاقتناع بفكرة (التبكير)، ولتأكيد هذا الإجراء الأسلوبي ساق السّكاكي رواية للأصمعي مفادها تقبيل خلف الأحمر بين عيني بشار بحضرة أبي عمرو بن العلاء؛ وذلك حين اقترح خلف على بشار تغيير البيت ليكون على النحو الآتي: "بكّرا، فالنّجاح في التّبكير"؛ أي بحذف التوكيد بـ"إنَّ"، فقال بشّار: "إنّما قلتها يعني قصيدته أعرابية وحشية، فقلت: "إنّ ذاك النّجاح في التّبكير"، كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت:" بكّرا، فالنّجاح في التّبكير"، كان هذا من كلام المولّدين، ولا يشبه ذلك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة التي قلتها" (السكاكي 2000، ص261).

فهذه الرواية تؤكّد أنّ هذا النّوع من الانزياح الأسلوبي من متطلّبات الكلام البليغ، فقد ورد في القرآن الكريم، كما ورد في كلام الشّعراء الفحول - كما ذكر بشّار - كما تشير هذه الرواية أيضًا إلى قضية مهمّة تتعلّق بإنتاج الدلالة، فالشّاعر بخروجه عن القاعدة واستخدامه للتوكيد يحقّق دلالة إضافية هي تقرير المعنى في النّفس، بعد توقّع الشكّ والحيرة لدى المتلقي.

ويورد السّكاكي شاهدًا آخر على هذا الأسلوب، وهو قول الشّاعر:

جَاءَ شَقِيقٌ عَارِضًا رُمْحَهُ إنَّ بَنِيْ عَمِّكَ فِيهِمْ رِمَاحُ

وقد سعّى السّكاكي هذا النوع "تنزيل غير المنكِر منزلةَ المنكِر"، إذا ظهر على المخاطَب شيء من الإنكار (السكاكي 2000، ص262)؛ فجيء شَقِيق واضعًا لرمحه؛ بحيث يكون عرضُهُ في جهة الأعداء، وهذا يعني أنّه غير متهيءٍ للحرب؛ لاعتقاده أنّه لا رمْحَ في بني عمّه الخصوم له، غير أنّ الشّاعر استخدم التوكيد مخالفًا للأصل، وخاطب بقوله (إنَّ بَنِيْ عَمِّكَ فِيْهِمْ رِمَاحُ) بأسلوب التأكيد لإزالة ذلك الإنكار المفترض في مقام المخاطَب، والسبب في هذا الإجراء هو الانتقال بالكلام من وظيفة التواصل إلى وظيفة التأثير، يقول السّكاكي: "وهذا النّوع أعني – أعني نفث الكلام لا على غير مقتضى الظّاهر – متى وقع عند النّظّار موقعه استهشّ الأنفس، وأنق الأسماع، وهزّ القرائح، ونشّط الأذهان، ولأمرٍ ما تجدُ أرباب البلاغة، وفرسان الطّراد في ميدانها الرامية في حدق البيان يستكثرون من هذا الفنّ في محاوراتهم" (السكاكي 2000، ص263).

ويشير السّكاكي ثلاثة أنواع أخرى من الانزياح الأسلوبي في الخبر، منها: استعمال الخبر بمعنى الطلب لإنتاج دلالة "التفاؤل"، كقولك: "أعاذك الله من الشّبهة، وعصمك من الحيرة، ووفّقك للتقوى"، فهو خبر بمعنى الدعاء ليتفائل بلفظ المضي على عدّها من الأمور الحاصلة التي حقّها الإخبار عنها بأفعال ماضية (السكاكي 2000، ص432).

ومنها: استعمال الطلب في معنى الخبر، وذلك كقول الشّاعر:

أَسِيئي بِنا أَو أَحسِني لا مَلومَةً

فقد جاء الكلام بأسلوب الطلب (الأمر)، والمقصود الإخبار بمعنى الرضا بوقوع الداخل تحت الطلب إظهارًا كأنّ المرضي مطلوبٌ (السكاكي 2000، ص434).

ومنها: الأسلوب الحكيم، وهو تلقي المخاطَب بغير ما يترقّب (السكاكي 2000، ص435)، ومنه قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} (البقرة:189). قالوا في السؤال: ما بال الهلال يبدو دقيقًا مثل الخيط، ثمّ يتزايد قليلاً قليلًا حتّى يمتلئ ويستوي، ثمّ لا يزال ينقص حتّى يعود كما بدا؟ فكان الجواب على غير ما يتوقّعون، ودلّ على أنّ الأهلة لمعرفة أوقات المعاملات والعبادات.

وهناك أمثلة كثيرة على هذه الإجراءات التي قام بها السّكاكيّ في تناوله لمسائل البلاغة وتحليله للنصوص لا يتّسع هذا المقام لذكرها، وقد توصّلت إحدى الدراسات إلى أنّ السّكاكي كان "ينطلق من معيارين أساسيين في جمعه لمادته البلاغية، وهما: إخراج الكلام على مقتضى الظّاهر، وخروج الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر، وهما معياران يشكّلان تأصيلًا بلاغيًا لمفهومي الاختيار والانزياح الأسلوبي" (أيوب 2015، ص687).

ولكنّنا لا بدّ من التنبيه على أنّ هذه الإجراءات تتلاقى مع بعض المفاهيم الأسلوبية الحديثة القائمة على مبدأي الاختيار والانزياح، وهذا لا يعني أنّها تتطابق معها تطابقًا كاملاً إذا أخذنا في الاعتبار أنّ الأسلوبيات الحديثة قد طوّرت كثيرًا في إجراءاتها المعرفية والموضوعية من خلال الإفادة من علوم اللسانيات والنقد الأدبي الحديث.

خاتمة:

1. يمثل منهج السّكاكي في الدرس البلاغي خطوة مهمّة في إصباغ البلاغة العربية بصبغة علمية، فقد كان معنيًا بخدمة علم البلاغة وفق معطيات عصره، وحاول ضبط هذا العلم بضوابط علمية صارمة مع التركيز على صناعة المصطلح وما يتعلّق به من مفاهيم ونظريات.

2. تفوّق السّكاكي على أسلافه بحسن التبويب، ودقة الترتيب، وإسهامه في مجال ضبط المصطلح البلاغي أمرٌ لا ينكر، واتخاذه المنطق أساساً يبني عليه التعريفات والتقسيمات أمرٌ طبيعي في كلّ العلوم.

3. تحوّلت البلاغة لدى السّكاكي إلى بلاغة تعليمية، وهو أمرٌ حتمته ظروف العصر الذي عاش فيه، كما أنّه لم يهمل تحليل النّصوص الأدبية بالكلّية؛ فقد استشهد في كتاباته بكثير من النصوص القرآنية والشعرية، وبحث في أغراضها البيانية ودلالاتها المعنوية؛ ولكنّ تحليله لم يرتقِ إلى ذلك المستوى الذي لاحظناه عند عبد القاهر الجرجاني، والسَّبب في ذلك واضح وهو سيطرة النزعة القواعدية على منهجه؛ فعنايته بالجانب المعياري أثّر في الجانب التطبيقي لديه.

4. إنّ اتهام السّكاكي بأنّه السبب في جمود البلاغة العربية حكمٌ بعيد عن الإنصاف؛ فقد حاول وضع نظرية متكاملة في "علم الأدب"، لتكون ثمرة طبيعية لنظرية "النظم" الجرجانية، وتقع مسؤولية تراجع البلاغة على بعض البلاغيين الذين جاؤوا من بعده بسبب اهتمامهم بالشروح والتلخيصات.

5. تناول السّكاكي بعض القضايا المتعلقة بالانزياح الأسلوبي، ومنها ما جاء في باب الخبر؛ حيث عبّر عنها بتعبيرات خاصّة أبرزها "خروج الكلام على غير مقتضى الظاهر"، ووصف هذا الخروج بكونه من أساسيات البلاغة في الخطاب الأدبي، كما أنّها تؤدي وظائف فنّية جمالية في التّعبير من خلال بعض التحليلات البيانية في شواهد مختارة، ومثل هذه الإجراءات تتلاقى مع بعض المفاهيم الأسلوبية الحديثة القائمة على مبدأي الاختيار والانزياح.

المصادر والمراجع

أيوب، ح. (2015). تأصيل الظاهرة الأسلوبية في البلاغة العربية: مفتاح العلوم للسّكاكي نموذجًا. *مجلة العلوم العربية والإنسانية*، جامعة القصيم (السعودية)، 8(2).

تمام، ح. (2000). *الأصول: دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب*. القاهرة: عالم الكتب.

الجابري، م. (2009). *بنية العقل العربي*. (ط9). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

الجرجاني، ع. (1991). *أسرار البلاغة*، تحقيق محمود شاكر. (ط1). جدّة: مطبعة المدني.

الحباشة، ص. (2007). *مدخل إلى الأبعاد التداولية في قراءة الشروح البلاغية القديمة*، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، 24(100).

ابن خلدون، ع. (د.ت). *مقدمة ابن خلدون*. بيروت: مؤسسة الأعلمي.

الخولي، أ. (1996). *فنّ القول*. القاهرة: دار الكتب المصرية.

الخولي، أ. (1961). *مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب*. ط1، القاهرة: دار المعرفة.

الداية، ف. (1976). *التأثير الفلسفي في شروح التلخيص*. جامعة القاهرة: مكتبة كلية الآداب.

رجاء، ع. (د.ت). *فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور*. (ط 2). الإسكندرية: منشأة المعارف.
السّكاكي، ي. (2000). *مفتاح العلوم*، تحقيق عبد الحميد هنداوي. بيروت: دار الكتب العلمية.
شوقي، ض. (د.ت). *البلاغة تطور وتاريخ*. القاهرة: دار المعارف.
طبانة، ب (1988). *البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب*. (ط7). جدّة: دار المنارة.
طه، ح. (د.ت). *البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر*. بيروت: المكتبة العلمية.
عباس، ف. (1989). البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية. بيروت: دار النور.
عيّاد، ش. (1999). *اتجاهات البحث الأسلوبي*. القاهرة: أصدقاء الكتاب للنشر والتوزيع.
فيرستيج، ك. (2007). *أعلام الفكر اللغوي*. ترجمة أحمد شاكر الكلابي. بيروت: دار الكتاب الجديد.
القزويني، خ. (2002). *تلخيص المفتاح*. تحقيق ياسين الأيوبي. صيدا بيروت: المكتبة العصرية.
قدامة، ب، ج. (2004). *كتاب نقد النثر*. تحقيق: طه حسين وعبد الحميد العبادي. تونس: دار المعارف.
كوهين، ج. (1986). *بنية اللغة الشعرية*. ترجمة محمد الوالي وآخر. الدار البيضاء: دار توبقال.
المراغي، أ. (1950). *تاريخ علوم البلاغة*. القاهرة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
المسدي، ع. (2006). *الأسلوبية والأسلوب*. (ط5). بيروت: دار الكتاب الجديد.
مصلوح، س. (2003). *في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية*. الكويت: جامعة الكويت.
مطلوب، أ. (1964). *البلاغة عند السّكاكي*. بغداد: منشورات مكتبة النهضة.
مطلوب، أ. (1973). *مناهج بلاغية*. الكويت: وكالة المطبوعات.
ياقوت، ح. (1993). *معجم الأدباء*. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

References

Ayoub, H. (2015). The Origins of the Stylistic Phenomenon in Arabic Rhetoric: Miftah al-Ulum by al-Sakaki as a Model. *Journal of Arab and Human Sciences*, Qassim University (Saudi Arabia), 8(2).

Tamam, H. (2000). *Origins: An Epistemological Study of Linguistic Thought among Arabs*. Cairo: Alam al-Kutub.

al-Jabiri, M. (2009). *The Structure of the Arab Mind*, (9th ed.). Beirut: Center for Arab Unity Studies.

al-Jurjani, A. (1991). *Secrets of Rhetoric*, edited by Mahmoud Shaker. (1st ed.). Jeddah: al-Madani Press.

al-Habasha, P. (2007). Introduction to the Pragmatic Dimensions in Reading Ancient Rhetorical Commentaries. *Arab Journal of Human Sciences*, Kuwait University, Vol. 24, No. 100.

Ibn Khaldun, A. (n.d.). *Introduction to Ibn Khaldun*. Beirut: al-Aalami Foundation.

al-Khawli, A. (1996). *The Art of Speech*. Cairo: Dar Al-Kutub Al-Masryia.

Al-Khawli, A. (1961). *Methods of Renewal in Grammar, Rhetoric, Interpretation, and Literature*. 1st ed., Cairo: Dar Al-Ma'rifah.

Al-Dayah, F. (1976). *The Philosophical Influence in the Explanations of Al-Talkhees*. Cairo University: Library of the Faculty of Arts.

Raja, A. (n.d.). *The Philosophy of Rhetoric between Technology and Development*, (2nd ed.). Alexandria: Manshaat Al-Maaref.

Al-Sakaki, Y. (2000). *Key to Sciences*, edited by Abdul Hamid Handawi. Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah.

Shawqi, D. (n.d.). *Rhetoric: Development and History*. Cairo: Dar Al-Maaref.

Tabana, B. (1988). *Al-Bayan Al-Arabi: A Study in the Development of the Rhetorical Idea among the Arabs*. (7th ed.). Jeddah: Dar Al-Manara.

Taha, H. (n.d.). *The Arabic Statement from Al-Jahiz to Abd al-Qahir*. Beirut: Scientific Library.

Abbas, F. (1989). *The Slandered Rhetoric between Authenticity and Dependency*. Beirut: Dar Al-Nour.

Ayyad, Sh. (1999). *Trends in Stylistic Research*. Cairo: Friends of the Book for Publishing and Distribution.

Versteeg, K. (2007). *Flags of Linguistic Thought*, translated by Ahmed Shaker Al-Kalabi. Beirut: Dar Al-Kitab Al-Jadeed.

Al-Qazwini, K. (2002). *Summary of the Key*, edited by Yassin Al-Ayyoubi. Sidon Beirut: Al-Maktaba Al-Asriya.

Qudama, B., J. (2004). *Book of Prose Criticism*, edited by: Taha Hussein and Abdul Hamid Al-Abbadi. Tunis: Dar Al-Maaref.

Cohen, J. (1986). *The Structure of Poetic Language*, translated by Muhammad Al-Wali and others. Casablanca: Dar Toubkal.

Al-Maraghi, A. (1950). *History of the Sciences of Rhetoric*. Cairo: Mustafa Al-Babi Al-Halabi and Sons.

Al-Masdi, A. (2006). *Stylistics and Style*. (5th ed.). Beirut: Dar Al-Kitab Al-Jadeed.

Maslouh, S. (2003). *In Arabic Rhetoric and Linguistic Stylistics*. Kuwait: University of Kuwait.

Matloob, A. (1964). *Rhetoric in Al-Sakaki*. Baghdad: Nahda Library Publications.

Matloob, A. (1973). *Rhetorical Methods*. Kuwait: Printing Agency.

Yaqoot, H. (1993). *Dictionary of Writers*, edited by Ihsan Abbas. Beirut: Dar Al-Gharb Al-Islami.